الثانية كانت قد تقدمت واقتربت فلم نوليه انتباها بعد ٠

كان هؤلاء الذين اطلوا يتقدمون في طوابير ، وقد صدهم مشهد سابقيهم داخل الشاحنة فتوقفوا عن المسير ٠ وكان في اخر الطابور ثمة نساء كذلك فانطلق من بينهن عندها صوت ينتحب ٠ (اقشعر جلدي) ٠ بدا وكأن شيئا ما سيحدث هذه المرة ٠ مر بي شيخان ، كانا يغذان السير ويتمتمان ، ولا ادري أكل الى صاحبه ام كل الى نفسه ، محاولان التوقف امام الجيب وقد بدا لهما مجلس جاه يرفعان اليه شكواهما ، الا انهم كشوهما هناك بالايدي لكي يتابعا طريقهما ويعبران : « يا لله ، يا لله » ٠ فتابعا طريقهما وعبرا ٠ الا انهما بدلا من ان يعبرا الثغرة ، واصلا السير في بركة الماء مباشرة يخوضان في الماء بأقدامهما الحافية وهما يرفعان ذيلي ثوبيهما بأيديهما ، كما لو لم يكن العبور في بركة ماء بشيء خاص ٠ فسار الاخرون في اثرهما يخوضون في الماء معتقدين ان هذي هي الطريق التي يتوجب عليهم سلوكها ٠ وكان ثمة من انحنى من بينهم متنهدا ، ثم خلع نعليه من قدميه وراح يقطع الماء ٠ لن اعرف لماذا بدا المشهد بالغ الاذلال والاحتقار ٠ كالحيوانات ، فكرت ، كالحيوانات ٠ ولكن عندما مرت بنا النساء مالت علينا احداهن وتعلقت بكم قميص شلومو وبكت امامه مستعطفة ٠ نفض شلومو يده يخلصها منها ، وراح يتلفت حوله يبحث عن مخرج ، او ربما ، مستسمحا معاملتها برفق ٠ الا ان يهودا الذي كان يقف هناك ناسيا ثيابه الملطخة ، صرخ بها بقسوة : « يالله ، يالله ، انت ايضا ! » ٠ اما هي فقد ارتعبت وذهبت ، وشلومو يعزي النفس ، ولا ادري أكان يشرح ، ام كان يعلل :

ـ « ما الذي كانت ستفعله هناك في القرية وحدها ؟٠٠٠ » ٠

داهمتنا بعد ذلك امرأة في حضنها رضيعة هزيلة ، تتأرجح كأداة لا نفع فيها ، طفلة غبراء اللون ، نحيلة ، عليلة ومتقزمة ٠ وكانت امها ترفعها بأسمالها وترقصها امامنا متوسلة ، بلهجة ليست هي بالساخرة ولا هي بالحاقدة ، كما ولا بالبكاء المجنون هي ، وانما هي ، قد تكون ، كلها معا : « اتريدونها ؟ خذوها ، خذوها لكم ! » ٠ تجهمنا بامتعاض ، فرأت في ذلك ربما نجاحا فتابعت ترقص ذلك المخلوق التعيس ، المقمط بالاسمال الملطخة بالغائط ، في احدى يديها ، وتربت بالاخرى على صدرها : « ها هي خذوها ـ اطعموها خبزا ، خذوها لكم ! » الى ان حزم احدنا امره وصرخ بها : « يالله ، يالله » ، وهو يرفع يده ـ لا اعرف لماذا ـ فتراجعت بينهن ضاحكة وباكية تغوص في البركة وهي لا تزال ترقص طفلتها بين يديها ، تضحك حينا وتبكي اخر ٠

ـ « انهم كالحيوانات ! » قال لنا يهودا شارحا ٠ فلم نعقب بشيء ٠

جمعوا النساء كلهن في شاحنة اخرى وهن يصرخن وينتحبن ، فلم يحسد احد منا اولئك المكلفين بهن ٠ وكان ثمة من يقف من الشباب بالقرب من الشاحنة صارخا بالمقابل بأنه لا ينبغي عليهن ان ينتحبن ما داموا لا يفعلون بهن شيئا ، بل يأخذونهن الى ازواجهن٠ وسواء كانت لغته العربية غير مفهومة ، او ان تفسيراته لم تقبل ، فان العويل والبكاء كانا قد ازدادا ، وانهلن عليه كلهن ، وقد فتح الباب لهن ، بسبع وسبعين شكوى واحتجاج وتهمة وتوسل ورجاء ، الى ان تراجع مرتبكا ، ولم ينقذه من ورطته هذه غير الصرخة التي اطلقها احدنا عليهن يسكتهن ٠

مر بنا بعد ذلك عدة رجال اخرين دون ان ينبسوا ببنت شفة ودون ان ينظروا الينا ٠